أثر العقيدة على المباديء العامة للسلوك

عند الشيخ أبي الفيض مُحَّد بن عبد الكبير الكتاني

الدكتور حمزة بن علي الكتاني

الملخص

يعتبر الشيخ أبو الفيض مُحَّد بن عبد الكبير الكتاني (ت1327هـ/ 1909م)، شيخ الطريقة الأحمدية الكتانية، أحد أبرز شيوخ التصوف في عصره، أسس طريقة انتشرت انتشارا واسعا، كما تميزت أدبياتها وطرحها التربوي بعدة ميزات جعلتها ظاهرة تستحق الدراسة والتعمق.

حاولت هذه الدراسة، تتبع كتب ورسائل الشيخ الكتاني، لتستجلي مفهوم الطريق، والمبادئ العامة للتربية، وأركان الطريق، ومدى ارتباط كل ذلك بالبحث العقدي للشيخ الكتاني رحمه الله، خصوصا عقيدة وحدة الوجود وبذلك دور الإيمان في التأثير على سلوك الفرد والمجتمع وتربيته، ورقيه الروحي من خلال التأمل في أسماء الله تعالى وصفاته، وعلاقة الأكوان بها، وهي تربية يرى أنها تسرع في الرقي بالمريد، وإيصاله إلى درجة الكمال.

Abstract:

Sheikh Abu al-Faidh Muhammad Ibn Abd el-Kabir el-Kattani (1327 AH / 1909), the sheikh of the Sufi way el-Ahmadiya el-Kattania, one of the most famous Sufis of his time, founded a Sufi method that has spread widely. This method's literary works and educational theses had many features that made it a phenomenon worthy of study and analysis.

This study attempts to follow the books and writings of Sheikh el-Kattani to explain the concept of the way, the general principles of Sufi education, the pillars of the method, and the extent to which this is related to the doctrinal research of Sheikh el-Kattani, may he rest in peace, especially the doctrine of the unity of being, and the influence of faith on the behavior of the individual and society, and their spiritual ascension through meditating on the names and attributes of God, as well as their relation to the universes. It's an education which accelerates the ascension of the Murid (disciple) and transmits him to perfection.

يعتبر الشيخ أبو الفيض مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني الإدريسي الحسني، المولود بمدينة فاس عام 1290هـ/ ، والمتوفى بها شهيدا عام 1327هـ/ 1909م، مؤسس الطريقة الأحمدية الكتانية، أحد أبرز شيوخ التربية في القرن المنصرم، ليس فقط بما نشره من أوراد، ومن تبعه من أتباع جعل طريقته أكبر طريقة صوفية في المغرب الأقصى في فترة من الزمان فحسب، ولكن بما جدده من المنهج التربوي، والعرفان والمعرفة الإلهية، التي كان يدعو إليها، وينظر لها، تلك المعارف والمنهج التي لم تكن مقتصرة على الجانب الصوفي والتربوي والعرفاني فحسب، ولكن تجلت حول المفهوم والفلسفة المعرفية عامة، بحيث استطاع أن يبلور نظرة في علم الكلام والعقيدة، وفي التفسير، والفقه، والفكر السياسي والاجتماعي عامة.

وليس غريبا أن نعلم أن الشيخ أبا الفيض مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني هو والد الحركة الدستورية في المغرب، وأول داعية للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، والداعية للجهاد الذي قضى في سبيل عمله ومثابرته شهيدا، بعد أن أرسل ألوفا من المجاهدين لحرب المستعمر في كافة أطراف المغرب.

وهو إلى ذلك صاحب النظرية العرفانية المنبثقة من الحقيقة الأحمدية، والتي لم يكشف عن مكنوناتها أحد قبله، ولا حام شيخ مرب حولها، وبالأحرى أن يبني عليها أسسا تربوية، كما أنه صاحب طريقة "الاجتباء" في السلوك والتربية، التي توصل الفقير في أوجز وقت إلى مراقي العرفان، ومراتب الشيوخ الكمل، ولذلك استحق أن يلقب بالختم الأحمدي، وبالختم الأكبر، رحمه الله تعالى.

وفي هذه الدراسة المقتضبة، سأكشف الغطاء – بإيجاز – حول المباديء العامة للسلوك عند الشيخ أبي الفيض رضي الله عنه، ملخصا ذلك من كتبه ورسائله، ومبرزا له بطريقة واضحة وميسرة بإذنه تعالى.

المبحث الأول: المبادئ العامة للسلوك عند الكتاني

المطلب الأول: أركان السلوك عند الشيخ الكتاني:

للكتاني رسالة سماها: "أركان الطريق"، كما أنه ضمن تلك الأركان في بعض مؤلفاته؛ خاصة "الإجازة الطرقية". واعتبر أن تلك الأركان؛ هي مباني للطريق إلى الله تعالى، وجعلها من خصائص طريقته. وسأستعرض في هذا المطلب تلك الأركان، وأربطها بعلم الكلام عند الشيخ الكتاني.

1- الركن الأول: التوبة من جميع ما جنته يداك من حين التكليف إلى وقتك الذي أنت فيه. فيعتبر الكتاني أن التوبة هي الركن الأول في السلوك إلى الله تعالى.

والتوبة لغة: الرجوع من الذنب. وتاب إلى الله يتوب توبا، وتوبة، ومتابا: أناب ورجع عن المعصية إلى الله.

قال تعالى: { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ}. [غافر: 3]، وفي الحديث: "الندم توبة"[1]، [2].

ويعرفها الكتاني بأنها: "الندم والإقلاع"، غير أنه: "ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة"[3]، [4].

والكتاني لا يقرن هذه التوبة بالذنب الظاهر، ولا يقصرها على أعمال الجوارح؛ فقد كان سيد أهل الأرض النبي ﷺ، يدمن الاستغفار دائما، ولا يظن ظان أنه ﷺ يستغفر من مقام حل فيه نبي مرسل، ولا مَلَك مقرب، فإن بدايته ﷺ لم تشارك شيئًا من نهايات غيره، فيُنظر من أي شيء كان يستغفر؟!، مع مراعاة الإجلال والإعظام، والإكبار لقدره صلى الله عليه، وإعمال الأرواح والقوى النورانية في معنى ذلك![5].

وهنا نجد الكتاني يربط مسألة التوبة بمسألة عقدية؛ وهي: عصمة النبي ﷺ، وتَنَزُّهُه عن الخطأ، حتى فيما يتعلق بدقائق الأمور، كما أنه يربط المريد بمكانة النبي ﷺ، وأنها لم يبلغ بدايتَها نبيٌّ مرسَل ولا ملك مقرب، فأحرى من هو دونهما. من هنا يظهر أثر العقيدة عند سلوك الشيخ الكتاني، وارتباطها بذلك السلوك.

كما أن مسألة "التخلي" - وهي: تخلي العبد عن ذنوبه وأوزاره - تعتبر أول الطريق بالنسبة للكتاني، وذلك ما نرى الإمام الغزالي يعتمده في كتابه "الإحياء" ربع المنجيات. إذ التربية عند الصوفية تمر عبر: التخلي، ثم التحلي، ثم التجلي.

أما التخلي: فهو التخلي عن الذنوب والرذائل، كما أسلفنا، إلى أن يتخلى العبد عن نفسه وعن حظوظه البشرية والإنسانية.

والتحلي: بالخصال الحسنة، والصفات المحمودة، والذكر، والاتباع، والتزام السنة النبوية، والتزام الأوامر الشرعية.

([1]) حديث رواه الإمام أحمد في مسنده، مسانيد المكثرين، مسند عبد الله بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا (رقم: 3568).

([2]) "لسان العرب"؛ مادة: "توب".

([3]) حديث رواه البزار في مسنده، مسند أبي بكر الصديق، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه موقوفا، رقم 67، قال: "وفي سنده مجهولان".

([4]) "الإجازة الطرقية" ص201.

([5]) "الإجازة الطرقية" ص201.

والتجلي: وهو نتيجة التخلي والتحلي؛ فهو عندما يتجلى العبد بالحقائق الربانية، وأنوار الطاعات، فتفتح له المعارف الربانية، والكشوفات الصمدانية[1].

2- الركن الثاني: تصحيح مقام التقوى؛ وهي: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي. فنجد الكتاني يبدأ بمسألة الاعتراف بالذنب، والعزم على عدم الرجوع إليه، ثم يثني بجعل وقاية بين المرء وبين الذنب؛ وهي: التقوى.

فالتقوى لغة: الصيانة، والحفظ، والستر عن الأذى. وفي الحديث: "وتوق كرائم أموالهم"[2]؛ أي: تجنبها.

وقال الله تعالى: { فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً }. [الإنسان: 11]. أي: منعهم، وحماهم[3].

غير أن الكتاني يعتبر التقوى: "امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهرا وباطنا"[4]. فالوقاية من غضب الله تعالى تكون بالاتباع، وليس بالأماني، وهنا نجد نفسنا أمام مفهوم الإيمان لدى الكتاني، وأنه: "اعتقاد، وقول وعمل"؛ فالعمل داخل في مسمى الإيمان.

والتقوى عنده مراتب: أدناها: اتقاء الشرك، وأوسطها: حفظ الجوارح ظاهرا وباطنا، وأعلاها: اتقاء خطور غير الحق سبحانه على القلب؛ قال: "وهي الخصيصة التي لا يؤتاها كل أحد، وهؤلاء قال قائلهم:

ولو خطرت لي في سواك إرادة ... على خاطري، سهوا، قضيت بردتي"[5]، [6]

فالتقوى عند الكتاني سلوك عام، يتجلى على سائر تصرفات الفرد، سواء المتعلق منها بالحواس الخمس، والمتعلق بأعمال القلوب (الباطن)، وهي رتبة لا تنفك من المريد في سائر مراتب القرب إلى

---

(1) "التوقف على مهمات التعاريف" التخلي: ص111، والتجلي: 108، أما التحلي؛ ففي موسوعة الكسنزان (5: 243) مادة: "حلي".

(2) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعا.

(3) "لسان العرب"؛ مادة: "وقي".

(4) "الإجازة الطرقية" ص202، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

(5) بيت من تائية ابن الفارض، المعروفة بنظم السلوك. "ديوان ابن الفارض" ص71.

(6) "الإجازة الطرقية" ص202.

الله تعالى، فهو لا يأمن مكر الله تعالى؛ وفي القرآن الكريم: { فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}. [الأعراف: 99].

3- **الركن الثالث: التماس المعاذر لسائر الناس.** هنا نجد الكتاني يتحدث عن أمر مهم؛ وهو: معالجة القلب بحسن الظن، وعدم إساءة الظن في أحد؛ ضرورة أن الله يحاسب على سوء الظن ولا يحاسب على حسن الظن. كما أنه يتعدى المريد والسالك من معاملته نفسَه إلى معاملته محيطه، ومن يلتقي به من الناس، فالمريد الصادق يجب أن يحسن الظن بالآخر، ولا يحمل أفعاله أو أقواله إلا على أفضل الوجوه وأكثرها سلامة.

وقد عمم الكتاني هذا المبدأ على سائر الناس: على اختلاف مراتبهم من غنى وفقر، وعلم وجهل، وشرف ووضاعة...وغير ذلك، واتساع مجال آرائهم؛ من مفكرين، أو نُظَّار، أو قاصرين في الفكر، أو فلاسفة ومتكلمين..إلخ، بل يزيد في هذا الشرط إلى اتخاذ الأعذار للناس على تباين مذاهبهم أيضا؛ فرحمة المؤمن تشمل جميع الناس، ولو اختلفنا معهم في المذهب والمعتقد، ما لم يخرجوا عن مسمى الإسلام[1].

بل يقول الكتاني: "ولا تزد على الإنكار على المنحرف بلسان الشرع، ومن كان هكذا؛ أنكر وهو أب شفيق رحيم"[2]. فرسوم الشريعة دائما محفوظة، والمنكَر يبقى في نفسه منكرا، وإزالته واجبة، ولكن لا يتعدى الإنكار الواجب الشرعي إلى دخول الحظوظ النفسانية، التي تدفع المرء إلى تعدي الحقوق وانتهاك الحرمات.

ويبرر الكتاني هذا الشرط بمسألة كلامية، يرشد المريد أن يستحضرها دائما؛ وهي: "واستعن على هذا بدوام استحضار أن الحق تعالى هو الآخذ بالنواصي، ولا فاعل سواه؛ { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }. [هود: 56]؛ فتأمل: فإذا كان الحق في نفسه على الصراط المستقيم، وهو مع ذلك آخذ بالنواصي؛ فما ثم بهذا الاعتبار إلا الصراط المستقيم!"[3].

وهنا نجد الكتاني يستعين بمسألتين كلاميتين: الأولى القدر وسر القدر، والثانية: الكسب. ذلك أن الله تعالى هو المقدر لكل أعمالنا، وأقوالنا، صوابها وخطئها، وبالرغم من ذلك؛ فتقديره لا يخلو من حكمة هو أعلم بها، وأمور الله تعالى كلها تسير على الصراط المستقيم، والمهيع القويم، فالأعمال

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق ص203.

(3) المصدر السابق.

وإن كانت أخطاء أو ذنوبا بنسبتها إلينا، ولكنها في حقيقة أمرها، ونسبتها لفعل الله تعالى؛ لها حكمة ومراد يُعتبر عين الصواب.

من هنا نجد الكتاني يوفق بين الجبرية وبين أهل السنة والجماعة، ويحل إشكالات سلوكية وعقدية، تنبثق من هذا المفهوم العام لالتماس الأعذار، وهو نظر دقيق جدا، نتج من الدمج بين علمي الكلام والتصوف.

4- **الركن الرابع: نظرة التعظيم في سائر الموجودات.** وهي رابع الأركان التي يتحدث عنها الكتاني ويجعلها دعامة في بناء السلوك إلى الله تعالى، فالكتاني بعد أن بنى الركن الأول على ما بين العبد وربه، وجعل الركن الثاني بين العبد ونفسه، ثم الثالث بين العبد وإخوانه من المسلمين، يعمم الركن الثالث في ضبط العلاقة ليس بين العبد وسائر البشر فحسب، بل بين العبد وبين سائر خلق الله تعالى.

فهو يرشد إلى أن ينظر السالك نظرة التعظيم والإجلال لسائر خلق الله تعالى، من سائر الموجودات، فيحترمها، ويجلها، ويتعامل معها بميزان الشرع لا بميزان الحظوظ والأهواء، مبررا ذلك بأن: "لكل نسمة وُجْهَةً ونِسْبَةً خاصة من الحق، تستحق النسمة أن تُعظم من أجلها، وتَفهَّم سر قوله تعالى: { اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ }. [النور: 35]، وهو بساط طويل، وقد أومأت إلى المقصود!"[1].

وهو يشير هنا إلى مسائل من الإلهيات؛ وهي: انفعال الأسماء والصفات الإلهية، وارتباط الكون بها، فحيث إن الموجودات مرتبطة بالأسماء الإلهية ومقتضياتها؛ فإن لها من التعظيم والاحترام ما للصفة التي كانت سببا في ظهورها.

ومن هنا؛ يومىء الكتاني إلى مسألة مهمة، اعتنى بها شيوخ التربية، وجعلوها علما مستقلا؛ وهي: المراقبة، بحيث لا يكتفي المريد بجعل نفسه مراقبة له، ولكنه يعتبر كل الأكوان مراقبة له، وكأنها كلها أعين للحق تعالى؛ كما في حديث جبريل الشهير: "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[2].

المطلب الثاني: العهود الكتانية:

الكتاني كما أنه يرى أن لطريق التربية والسلوك أركانا لا يتم بناؤها إلا عليها؛ فإنه عاهد مريديه أحد عشر عهدا، واعتبر أن تلك العهود من متممات الطريق، ومما لا يعان المرء إلا بها، وضَمَّن تلك

(1) المصدر السابق.

(2) سبق تخريجه.

العهود في رسالة سماها: "سُفن النجاة، وكهوف العباد". ونظرا لأهمية تلك العهود والمواظبة عليها؛ فقد قال: "من حافظ عليها؛ فله ما لنا وعليه ما علينا"[1]. وبذلك تصبح تلك العهود مرادفا للدخول في سلك تلامذته وأتباعه.

وسأستعرض هنا تلك العهود، محللا لها، ورابطا لها بعلم الكلام عند الشيخ الكتاني:

1- **العهد الأول:** حفظ الرابطة الإخائية، والمودة الإيمانية.

2- **العهد الثاني:** عدم إيقاع الصلاة إلا في الزاوية.

3- **العهد الثالث:** تكون الصلاة سنية؛ بمراعاة السنن "كما رأيتمونا نصلي في الزاوية الكبرى"[2].

4- **العهد الرابع:** أن لا يقوموا مسرعين إذا فرغوا من الصلاة.

5- **العهد الخامس:** عدم إهمال أوراد الصلاة كلها، كل وقت وقت.

6- **العهد السادس:** عدم ترك المذاكرة صباحًا ومساء.

7- **العهد السابع:** ترك الأوهام وسوء الظنون بالله تعالى ورسوله الكريم وأوليائه.

8- **العهد الثامن:** عدم الغفلة عن أوراد الليل والنهار.

9- **العهد التاسع:** كل من عُينت له خطة أو عُين له شغل فليلزمه، ولا يبغ بعضكم على بعض.

10- **العهد العاشر:** عدم ترك أوراد من القرآن الكريم.

11- **العهد الحادي عشر:** المحافظة على مكارم الأخلاق النبوية التي لا تنصلح الأمور إلا بها.

باستعراض أولي لهذه العهود؛ نجد أن قسما منها: يرجع إلى حفظ ظاهر الشريعة. وقسما آخر يرجع إلى حفظ أعمال القلوب وأدوية النفوس. وقسما يرجع للوحدة الإيمانية، وجمع المسلمين؛ ذلك الجمع الذي يعتبر –كما سيأتي لاحقا– من مقاصد الشريعة التي راعتها في مختلف الأحكام والعبادات.

1-**أما العهد الأول**؛ وهو: حفظ الرابطة الإخائية، والمودة الإيمانية. فيرجع إلى مسألة التوحيد بين المسلمين، والمؤاخاة فيما بينهم، والتآزر، بحيث تجعلون جميعكم نفسا واحدة، قائمة بذات واحدة[3]. فالمقصود عند الشيخ الكتاني أن يكون المسلمون متكاتفين متآلفين كأنهم ذات واحدة؛

(1) "سفن النجاة وكهوف العباد" ص271، ضمن "النفائس الكتاني: 1-11".

(2) "الإجازة الطرقية، وشروط وأركان الطريق" ص203، ضمن: "النفائس الكتانية: 1-11".

(3) "سفن النجاة، وكهوف العباد" ص271.

مصداقا لقوله تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا }. [آل عمران: 103]. ويعتبر أن الإخلال بتلك الوحدة؛ ينتج نتائج هي التي "أوصلت المعالم الإسلامية لهذا الحد في جميع معمور الأرض"[1].

يقول الكتاني: "وما شرع – جل ثناؤه – الجماعة والجمعة، والأعياد، وصلاة الكسوف والاستسقاء، والموسم الأكبر بعرفة، إلا للألفة والائتلاف وحسن التآخي، ولُطف تحكيم الروابط الدينية، حتى تأتلف القلوب على محبة الدين وخدمته، والتشريف بالتلبس بشعائره والقيام بوظائفه، وقد يسري الأمان منا لبعضنا بعضا، فلا يشتم البعض منا البعض، ولا ينم عليه ولا يغشه، ونغض الجفون عن مساوئ بعضنا بعضا، فلا نطمح إلا لمحاسن بعضنا بعضا، وذكرها ونشرها".

"وبذلك ينتظم شمل الأخوة الإسلامية، ويدوم التعاضد والترقي في المعارج التي تنتج رضوان الله الأكبر، وتنتج رضى الخلق أيضا. فإنما شرع سبحانه الشرائع ليستر قبائحنا ومساوئنا لو علمنا سر مشروعيتها، لأنا إذا امتثلناها؛ قامت بنا المحامد واجتنبنا المذام، وبذلك يحصل قصد الشارع!"[2].

2-**العهد الثاني:** عدم إيقاع الصلاة إلا بالزاوية. ويربط الكتاني هذه المسألة بظاهر الشريعة، وذلك نظرا لإخلال جل أئمة وقته بأحكام الصلاة، ويُرجع تلك الأخطاء إلى:

أ- أخطاء في الأداء؛ لعدم إتقان علم القراءات والأداء.

ب- انتشار قوادح الشهادة.

ج- استعمال الغبرة (التنفيحة)؛ "وهي مبطلة للوضوء والصلاة والصيام"[3]. على حد قوله.

وهنا يظهر الارتباط العضوي بين ظاهر الشريعة وباطنها عند الكتاني، أو بين تربية الجوارح وتربية القلوب، مع ما سبق التنويه إليه من ارتباط كل ذلك بعلم الكلام والعقيدة.

3-**العهد الثالث:** أن تكون الصلاة سُنية، يراعى فيها اتباع سنن الصلاة "كما رأيتمونا نصلي في الزاوية الكبرى"[4]. وهذا مرتبط –كما العهد الثاني– بظاهر الشريعة ومراعاتها.

4- **العهد الرابع:** عدم القيام مسرعين بعد الصلاة، "فإنه أجمع أهل الظاهر والباطن على أن من علامة عدم قبول صلاة المصلي: قيامه مسرعا إذا فرغ من الصلاة، مع تفويته نفسه صلاة الملائكة

([1]) المصدر السابق ص272.

([2]) المصدر السابق.

([3]) المصدر السابق ص272-274.

([4]) المصدر السابق ص272.

عليهم السلام عليه، كما في الحديث: إن الملائكة لتصلي على أحدكم مادام في مصلاه؛ تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. ما لم يُحَدث[1]. ودعاء الملائكة مستجاب!"[2].

وهنا يربط الكتاني هذا العهد بمسألة هي من أعمال القلوب، ومن الغيبيات المرتبطة بالعقيدة، ويستدل لذلك بحديث نبوي شريف، فالجلوس بحد ذاته له عملُه وأثره في المريد، وإن لم يذكر فيه بلسانه.

5- **العهد الخامس:** عدم إهمال أوراد الصلاة كلِّها كلَّ وقت وقت. وذلك باعتبار أن تلك الأوراد أدوية للأمراض الروحية التي تصيب الإنسان، والجسم المنخور بالأمراض لا يمكن أن تستقيم أحواله، ولا أن يتلبس بالقوة للتغلب على الوساوس والمكائد الشيطانية.

"ولا يعلم أدوية الأمراض التي في الذات إلا من خلق فيها الأمراض، والذي أنزل الداء؛ هو الذي أنزل الدواء سبحانه، فإذا أُهمل ترتُّب من ترتبات الشرائع؛ تكافقت الأمراض، وعز الدواء"[3]. وهنا مسألة كلامية؛ وهي: أن الله تعالى يخلق الخير والشر، خلافا للمعتزلة الذين قالوا بأن الله تعالى لم يخلق إلا الخير، وأن الشر إنما هو من صنع المخلوق.

6-**العهد السادس:** عدم ترك المذاكرة صباحا ومساء. يعني: بعد قراءة حزبين من القرآن الكريم، قال: "وتكون المذاكرة في "العهود"، أو في كتبنا، ولو ثلث ساعة...وأما بين العشاءين؛ فلا يُترك التدريس لرسالة ابن أبي زيد؛ فإنها تورث الغنا، ويا ضيعة الأعمار تمضي سبهللا"[4]. وقد علل الكتاني هذا العهد بكون المحل الذي "يحضره الروح الأعظم؛ جدير أن يُعمر دائما ويُستعبد في أرجائه".

فالمذاكرة علاوة على كونها سببا في تعلم الناس، واستخراج الفوائد، وجمع القلوب، فهناك بالنسبة للكتاني سبب باطني آخر؛ وهو: حضور روحانية النبي ﷺ – الروح الأعظم – نظرا لكثرة ذكره والصلاة عليه، وهو يقول: "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام"[5]، ويتخلق بأخلاق الله تعالى الذي قال كما في الحديث القدسي: "أنا جليس من ذكرني"[6]. وهنا يمزج

([1]) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساجد؛ رقم 273، والنسائي في سننه (2: 55)، والإمام أحمد في "الزهد" رقم 21، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

([2]) "سفن النجاة وكهوف العباد" ص275.

([3]) المصدر السابق ص272.

([4]) المصدر السابق ص276.

([5]) رواه الإمام أحمد في مسنده: مسانيد المكثرين، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (رقم: 10827).

([6]) أخرج البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه أيضا: كتاب: الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني..". الحديث، وروى ابن أبي

الكتاني المعرفة الصوفية، التي تأتي على شكل عقيدة ومبحث في علم الكلام، يمزجها بالسلوك والتربية.

7-**العهد السابع:** ترك الأوهام وسوء الظن بالله تعالى وبرسوله ﷺ. فإن كان الإنسان يعتقد أنه على الحق؛ فليترك البحر رهوًا![1]. وهذه المسألة تربوية؛ فهو يريد أن لا يشتت قلب المريد، ولا أن يجعل الأوهام والشكوك تتداخل عليه، كما أنه يبني معتقد المريد على الثقة بالله تعالى، والإيمان به، واعتقاد أن كل ما يأتي وما يجيء فإنه من الله تعالى، والله تعالى لا يفعل إلا خيرا...فتمتزج بهذا العهد مسألة كلامية؛ وهي: الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه كله من الله تعالى.

وقد بين الكتاني ذلك قائلا: "{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. [آل عمران: 101]، {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}. [الحج: 78]، {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا }. [آل عمران: 103]، {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}. [الشورى: 13]"[2].

8- **العهد الثامن:** عدم الغفلة عن أوراد الليل والنهار؛ فإن فيها السعادة الدينية والدنيوية. "ويا ليت الإنسان؛ إذا أقبل على الشوق للدنيا هذه المدة ولم تحصل منها عطفة؛ أن يتشوق لربه ولرسوله، وينظر هل تحصل عطفة أم لا؟!"[3].

9- **العهد التاسع:** كل من عُينت له خطة، أو عُين له شغل؛ فليلزمه، ولا يبغ بعضكم على بعض، ولم تنتظم الزاوية الرباطية[4] إلا بهذا العمل؛ فاستقامت لهم الأحوال![5].

"فالمراقبة رأس الأعمال، وحُسن الأعمال، وروح الأعمال، وزَين الأعمال، ومادة الأعمال، والعون على الأعمال، وعنوان قبول الأعمال، وهي أقوى عرى الدين، "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[6]، [7]. وهنا يمزج الكتاني بين السياسة وعلم الكلام، وبين تنظيم أمور الزاوية وما يتعلق بها من الوظائف، بمراقبة كل ذي شأن شأنه، ويربطها بمراقبة الله تعالى، واستشعار حضوره

شيبة في مصنفه (رقم: 34287) والبيهقي في "شعب الإيمان" (1: 451)، رقم 680: موقوفا على كعب الأحبار قال: "قال موسى عليه السلام: يا رب؛ أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك ؟. فقيل له: يا موسى؛ أنا جليس من ذكرني!"..الأثر..

([1]) أي: ساكنا. والمعنى: فليترك الأمر على أصله دون تعكير. "لسان العرب" مادة "رهو".

([2]) "سفن النجاة وكهوف العباد" ص276.

([3]) المصدر السابق ص277.

([4]) يعني: الزاوية الكتانية بمدينة الرباط.

([5]) المصدر السابق ص278.

([6]) جزء من حديث جبريل الشهير، وقد مضى تخريجه..

([7]) "سفن النجاة وكهوف العباد" ص278.

معنا، وكأنه يرانا، فإن لم يكن يرانا؛ فإننا نراه. وهذا يعد من أسمى الأخلاق التربوية التي تنتظم بها أمور المجتمع؛ إذ تجعل من الضمير رقيبا على النفس، ومن كان ضميرُه رقيبا عليها؛ لا يخشى من زلته ولا من طغيانه.

10- العهد العاشر: عدم ترك ورد من القرآن الكريم، والقرآن "مرتع الأولين والآخرين، وفيه عجائب من قبلنا، وخبرنا وما بعدنا؟!"[1]. وهنا يمزج الكتاني التربية بالقرآن الكريم، ويعتبر أن أفضل الأوراد هو القرآن الكريم، مستشهدا برؤيا لأبي المواهب الشاذلي رأى فيها الرسول ﷺ وهو يقول له: "اشتغلت علينا بوُرَيْداتك". والرؤيا هذه وإن كانت للنبي ﷺ، وفيها ما فيها من تقديم الفكر والتأمل على الذكر، فهي إشارة إلى عيب الاشتغال بالأدنى عن الأعلى، ولا أعلى من الله تعالى ومن كلامه سبحانه.

11- العهد الحادي عشر: مكارم الأخلاق النبوية التي لا تنصلح الأمور إلا بها. وهنا يربط الكتاني التربية بالسلوك، وبالأخلاق، ويربط كل ذلك بالنبي ﷺ، الذي هو البرزخ لله تعالى، ولا يقبل الحق سبحانه عملا ما لم يكن على شريعته، ووفق توجيهاته ﷺ وعلى آله، بل يزيد على طلب الاقتداء؛ أن أمر بتفهم معاني تلك الأخلاق، وتدبُّر أسرارها، ودعاء الله تعالى التوفيق على ذلك[2].

وبذلك تتم تلك العهود الإحدى عشر، ويظهر منها جليا امتزاج علم الكلام عند الشيخ الكتاني بالتربية والسلوك والآداب، بل يزيد تعمُّقا في فلسفة تلك العقائد، وما تنتجه، وما وراءها من الأعمال ومن الثمرات التي يجنيها المتدين، فتصير تلك العقائد واقعا معيشا، لا نظريات بحتة، تُحفظ ولا تتجلى على حياة المرء.

المطلب الثالث: مباني السلوك عند الشيخ الكتاني:

تحدث الكتاني في "الإجازة الطرقية" عن أركان الطريقة، والأعمدة الأساسية التي يقوم عليها السلوك والتربية، ولا تكون منها نتيجة أو أثر إلا بها. وكأنها أساسات يقوم عليها بنيان، وهذا البنيان يتحدث عنه في آخر الرسالة موضحا أن مبانيها؛ أعظمها، بل كلها: الاستهلاك في محبته ﷺ، واستغراق القلب في مودته، ودوام تشخُّص صورته الشريفة نصب العين، ودوام مشاهدته[3].

([1]) المصدر السابق ص279.

([2]) المصدر السابق.

([3]) "خبيئة الكون" ص118. عقد الكتاني في هذه الصفحة وما بعدها فصلا طويلا في إمكانية الاجتماع اليقظي بالنبي ﷺ، ورد على العلماء الذين أنكروا إمكانية ذلك، وأجابهم بأدلة سمعية وعقلية، وروحية.

هكذا تظهر مكانة النبي ﷺ في سلوك المؤمن، وموقعه في حياته؛ فهو كل شيء، وعليه مدار كل شيء ابتداء بـ:

- المحبة؛ التي هي عمل قلبي بحت، يستمد مادته من عناصر المعرفة والاستغراق، والتأمل والتشخُّص.

- واستغراق القلب في مودته ﷺ. وذلك الاستغراق هو ما يطلق عليه بالأحمدية، وهو مزيد تتبُّع وتعمق في سيرته ﷺ الخَلقية والخُلقية.

- ودوام تشخُّص صورته ﷺ الشريفة نصب العين. فالمحب يشرك جوارحه أيضا في تشخص صورة النبي ﷺ كأنه يعيش بيننا، وذلك بمعرفة شمائله، وصفته، وتخيل ذلك، فهي صفة تتعاون فيها الجوارح مع العقل مع الخيال.

- ودوام مشاهدته، وهي مشاهدة معنوية، ومشاهدة بصرية يتكثف فيها الخيال حتى يصبح جسدا حقيقيا، كما فصله الكتاني في كتابه "خبيئة الكون"[(1)].

وقد رتب الكتاني هذه المشاهد التي يستحضرها المريد إلى أربعة:

1- مشاهدته ﷺ برزخا بين المخلوقات وبين ربها. أنه لا ينزل شيء إلا عليه، ولا يصعد شيء إلا إليه، فمعاملة الخلق كلها معه ﷺ في الحقيقة[(2)].

قال: "وبيان ذلك: أن الحق سبحانه لما كان في عزة القِدَم، وجلال الربوبية، وكبرياء الديمومية، وكان الخلق في نقيض ذلك كله؛ كانت المناسبة بعيدة جدا، فكان مقتضى هذا: أن لا يظهر معه — سبحانه — شيء من المخلوقات البتة، فمن عظيم فضله وجليل امتنانه: أن أبرز من نفسه برزخا جامعا، وأفاض عليه جميع كمالاته، وحلاه بأسمائه وصفاته، فكان حاجزا عظيما بين المخلوقات وبين صدمات الغيرة الإلهية، وأوحال الجلالات الصعقانية".

"فعند ذلك؛ صلُحت الموجودات للوجود؛ وهو من معاني: لولاه لم تخرج الدنيا من العدم[(3)]. و: لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط[(4)]. ثم لم يقتصر في التنويه به ﷺ على هذا القدر؛ بل زيد بأن

([1]) "سفن النجاة وكهوف العباد" ص278.

([2]) "الإجازة الطرقية وشروط وأركان الطريق" ص204.

([3]) شطر من بيت من بردة الإمام البوصيري تتمته:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من　　لولاه لم تخرج الدنيا من العدم　　"ديوان البوصيري" ص181.

([4]) هي لفظة من ضمن الصلاة المشيشية، للعارف الشيخ عبد السلام بن مشيش.

جُعل متجليا في كل ذرة من ذرات الموجودات: إني لأُرى في كل صورة[1]. أنا من الله والمؤمنون مني!"[2]، [3].

وهنا نجد الكتاني يعتمد المفهوم التركيبي من أجل استجلاء حقيقة مُحَمَّدية، وهذه الحقيقة مبنية أساسًا على مفاهيم كلامية؛ وهذا البرزخ الذي يتحدث عنه هنا، ويبني عليه مسائل سلوكية؛ هو: المصطلح عليه عنده بالحقيقة الأحمدية. إذ لما كان النبي ﷺ واسطة بين الخلق وبين الحق تعالى؛ وكما أن الخلق كله هم تجل لصفات الله تعالى وانفعال لأسمائه؛ فإن النبي ﷺ هو الواسطة بين كل اسم وصفة إلهية وبين مقتضاها؛ ضرورة أن الاسم عين المسمى، بحسب الكتاني.

فلما كان واسطة بين الاسم والصفة وأثرها في الخارج؛ صار كل خير إنما يمر من طريقه ﷺ، ولا عبادة تُرفع إلى الله تعالى ما لم تمر به ﷺ، والكتاني يستدل لهذه المسألة بحديث: "إنما الله معط وأنا قاسم"[4]. وفي صلاته المعروفة بصلاة القاسم يقول: "اللهم صل على سيدنا ومولانا أحمد؛ القاسم أمداد الخزائن الإلهية، على أجناد الدوائر المُلكية، من لجُة قاموس بحر جودك الأعظم...إلخ"[5].

2- مشاهدة أن له ﷺ على كل ذرة من ذرات الموجودات نعمة الاستمداد من الحق.وهذه المشاهدة هي تبع للمشاهدة الأولى؛ فلما كان الواسطة في كل شيء بين العبد وبين ربه؛ صار كل مدد من الله تعالى لا يصل للخلق إلا من طريقه ﷺ.

وقد أشار لهذا المعنى الإمام الشافعي في ديباجة كتابه "الأم" فقال: "فلم تُمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت، نلنا بها حظا في دين ودنيا، أو دُفع بها عنا مكروه فيهما وفي واحد منهما؛ إلا ومُحَمَّد ﷺ سببُها، القائد إلى خيرها والهادي إلى رشدها، الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد، المنبه للأسباب التي تُورِد الهَلَكة، القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها"[6].

3- أن تشاهده ﷺ عند السلام في الورد. يقصد بذلك عند القول في الورد: "السلام عليك يا عين العيون. السلام عليك يا روح الأرواح. السلام عليك بلسان { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ }.

([1]) لم أجده.

([2]) لم أجده.

([3]) "الإجازة الطرقية وشروط وأركان الطريق" ص204؛ ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

([4]) مضى تخريجه.

([5]) صلاة القاسم من الصلوات الكتانية التي أنشأها الشيخ مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني، وقد شرحها علماء أتباعه، ومن أشهر شروحها كتاب: "حل الطلاسم بشرح صلاة القاسم" لعبد السلام بن مُحَمَّد بن المعطي العمراني، طبعت بمصر سنة 1321هـ/ 1903م، بالمطبعة العامرة الشرفية.

([6]) "الأم" (1: 5).

[الفتح: 10]". وقد شرح الكتاني هذه التسليمات في "الإجازة الطرقية"، وبتفصيل أكثر في كتابه "مدارج الإسعاد الروحاني"[(1)].

قال: "وحاصل هذا المشهد: أن تشهده ﷺ عين الأشياء، وروح الكائنات"[(2)]، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بـ: وحدة الوجود في النبي ﷺ.

4- أن تشاهده ﷺ نورا صرفًا.

فهذه أهم مشاهد الشيخ الكتاني في الحضرة النبوية، ولكنه يعتبرها مشاهد ابتدائية؛ إذ بعد حديثه عنها يقول: "فهذه – أخي – مشاهد أربع اقتصرنا عليها تبصرةً للطالب، مَن أدمنها انتقل إلى أرقى منها"[(3)]...

المطلب الرابع: أركان جمعية القلب على الله تعالى:

يرى الكتاني أن الغاية من مقابلة المؤمن بالابتلاء هي: جمع قلبه على الله تعالى، وما ينتجه ذلك الجمع من الأذواق والعلوم والمعارف، وقد ألف رسالة سماها: "سفينة المحبة" فصل فيها أركان هذه السفينة التي توصل صاحبَها إلى جمعية القلب على الله تعالى.

وقد صدر رسالته بقوله: "أما بعد؛ فإني فكرت في توالي رزايا الدهر، وأمعنتُ النظر في تواتر سهام منايا القهر، وأطلت الجولان في الحِكَم المُرادة من مقابلة المؤمن المخلص بالصدمات والنكبات والمحن، فأنتج لي هذا: أن ليس مرادًا لله من ذلك إلا شيء واحد؛ وهو: جمعية القلب على الله، وجعله الهم الواحد الذي يكفي صاحبَه الهموم، ويُدخل صاحبه تحت المعارف في عالم الكون والفساد قبل التطلع على خفايا عالم القرار"[(4)]...

ثم يجعل الكتاني لهذه السفينة أركانا أربعة، بعد أن يذكر أهمية الصحبة والمؤاخاة فيها، مبرزا أن العاقل لا يصاحب إلا من يُغضي عن زلاته إذا أساء، ويكون أقدر على وُصلتك إذا قطعته، وعلى الإحسان أقوى منك على الإساءة، ويحفظك حيا وبعد الممات، ويشتت شمله فيك ليجمعك، ومن

([1]) "مدارج الإسعاد الروحاني" ص112-116.

([2]) "الإجازة الطرقية" ص208.

([3]) المصدر السابق.

([4]) "سفينة المحبة" ص75 ضمن مجموع "النفائس الكتانية" 1-11.

يُضر نفسه لينفعك، ومن يؤثرك بالمشتهيات والملذوذات وكل ما تهواه النفس، ولكن؛ إذا التفتت النفس؛ وجدت هذا الأخ أعز من الكبريت الأحمر![1].

ثم يعدد هذه الأركان الأربعة، التي يعتبرها أساسات الطريق لجمعية القلب على الله تعالى، التي هي — بحسبه — مرادة من الابتلاء الدنيوي، والمحن التي يتعرض لها المؤمن. وتلك الأركان كالتالي:

1- الركن الأول: الصبر. فإن من لا يصبر؛ لا ينال المُنية والبُغية؛ لما أن الغالي لا يكون الظفر به رخيصا، وإذا كان غاليا؛ فغير عجيب بذلُك الغالي في الغالي، إنما العجب بذلُك الغالي — وهو همك ونفسك وأويقاتك، وخلوتك وجلواتك، وعمارة أراويحك — في الأمور الفانية المتلاشية الزائلة، التي إن أصبحت لا تمسي، وإن أمست لا تصبح![2].

2-الركن الثاني: الشكر. فإن الشكر ملزوم يلزمه الزيادة، ومن كان في زيادة؛ فهو في ترقي، ومن كان في ترق؛ فهو في كمال، ومن كان في كمال فقد أصلح نفسه، ومن أصلح نفسه؛ فقد أخلص، ومن أخلص؛ فقد قرُب، ومن قرب؛ فتحت له السرادقات، ومن أدلج؛ نزل وعرَّس.

ومن نزل استقر، ومن استقر؛ تمكن، ومن تمكن؛ تلون في نفس التمكين، ومن تمكن؛ طلب، ومن طلب؛ وجد، ومن وجد؛ شاهد، ومن شاهد؛ اندهش، ومن اندهش؛ طاش، ومن طاش؛ مات، ومن مات؛ عاش، ومن عاش؛ فات، ومن فات؛ تكلم بالمكنونات الغيبية، وافتض الأبكار اللدنية، ووصل المعاني القدسية، ولاحت له اللوائح الاكتتامية، وزُفت له العرائس الجبروتية، وأعطي المفاتيح الغيبية. وربما أحالوه على أرض المعرفة؛ فزُج به فيها، فشاهد أن العرَض يقوم بنفسه، وعجائب كم آذانا أهل السلوك بإفشائها![3].

هكذا يتدرج الكتاني مع المريد، ليوضح دور الشكر في جمع القلب على الله تعالى، وثمرات ذلك، تلك الثمرات التي تتجلى في المعرفة الربانية، والتي ضرب لها الكتاني بمثال كلامي؛ وهو: أنه يشاهد أن العرَض يقوم بنفسه!. والمعلوم عند المتكلمين أن العرض لا يقوم بنفسه، إنما يقوم بالجوهر. فيكون هذا اختيارا من اختيارات الكتاني الكلامية أيضا كما أومأت إليه في المطلب الثالث من هذا الباب.

3-الركن الثالث: التوبة. ونرى الكتاني هنا يكرر التوبة، فبعدما اعتبرها من مباني الطريق والسلوك الأساسية، نجده هنا يعتبرها من أركان جمعية القلب على الله تعالى. ولا شك أن للتخلي دورا مهما في تربية السالك وإيصاله لحضرة الحق تعالى.

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق ص76.

(3) "سفينة المحبة" ص75 ضمن مجموع "النفائس الكتانية 1-11".

وقد وصف أعمالها بـ: "الطهارة من كل قاطع لا يرضى به عنا، وننسلخ من كل حالة لا يرضاها الله ورسوله، وننظر إليها، وننظر أن لو اطلع علينا أخص أودائنا على هذه الحالة – فأحرى الأجانب – أنرضى ذلك منه ومنا أم لا؟. فلا أقل من أن نعامل الله هذه المعاملة؛ أن نعامله معاملة من إذا استروحْنا أن أحدا نستحي منه بمرأى منا ومسمع، أفنُقدم على ذلك الفعل أم لا، حتى ندعه يطلع علينا ولا نأمن غائلته ونستحي من مقابلته مرة أخرى؟...ولا تُشترط الخلوة المعلومة في نيل هذا الأجر؛ بل المراد منه: ذكر الله ولو في الملأ، غير أن قلبه خلا عن ملاحظة غير الله"...الخ[1].

فنجد الكتاني – كما العادة – يربط السلوك بالعقيدة، ويجعل المريد دائم الاستحضار لربه تعالى كأنه يراه رؤية حقيقية، فيتأدب مع ذلك، ويراقب نفسه وسلوكه وتصرفاته.

4-**الركن الرابع:** الحياء. فتحط أثقالك واستحياءاتك من الخلق ومتابعاتك معهم، وتُقبل على الله بما وُهبته من حُلة الحياء، و"الحياء لا يأتي إلا بخير"[2]، [3].

الحياء: التوبة والحشمة[4]. وهو انفعال داخلي يمنع الشخص من ارتكاب المحظور. فهو من جنس الضمير.

فقد أحال الكتاني المريد الصادق على الحياء، الذي هو من جنس التقوى والتوبة، ولكنه فعل جَمالي، ينتج من تربة نورانية لا تقبل الخطأ أو المعصية، ليس بدليل عقلي، ولا خوف نفسي، ولكن بنفرة روحية يكتسبها المرء.

ويختم الكتاني هذا الركن بقوله: "ويا للعجب؛ من كون الحياء شعبة من شُعب الإيمان البضع والسبعين، ومع ذلك لا توجد الشعَب كلها إلا به، بشاهد ما في الحديث: إذا لم تستح؛ فاصنع ما شئت[5]. أي: لم يبق لك حاجز ومانع يمنعك من المعصية، فترتع إذذاك في وادي المتالف"[6].

المبحث الثاني

اندماج التربية بالعقيدة عند الشيخ الكتاني

(1) حديث: "الحياء لا يأتي إلا بخير". أخرجه البخاري (6117)، ومسلم (37)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(2) "سفينة المحبة" ص85 ضمن مجموع "النفائس الكتانية" 1-11.

(3) المصدر السابق ص75.

(4) "لسان العرب" مادة "حيا".

(5) أخرجه البخاري (6120) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه، وأوله: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح؛ فاصنع ما شئت".

(6) "سفينة المحبة" ص86 ضمن مجموع "النفائس الكتانية" 1-11.

المطلب الأول: أهمية العقيدة وعلم الكلام في التربية:

يولي الشيخ مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني مسألة العقيدة وعلم الكلام مكانة خاصة في فكره ومنهجه عامة، فنجده يُضمن سائر كتبه العرفانية، والتربوية، والفقهية، وفي الشمائل النبوية، والسيرة، وغير ذلك مباحث كلامية عديدة، يُفَرِّعُ عنها مختلف المباديء العلمية التي يبحث فيها، كما أنه يصرح بعقيدته في غيرما كتاب من كتبه؛

- فقد صرح بعقيدته في "مدارج الإسعاد الروحاني".

- وألف رسالة: "العقائد الستة والستون". التي كلف عامة مريديه بحفظها وفهمها.

- و"استخراج العقائد الجملية من الصلاة الأنموذجية".

كما أفرد مباحث بالتأليف؛ فمن بين ذلك:

- "حياة الأنبياء" في مجلدين.

- و"التيسير والظفر في التفضيل بين الملك والبشر".

- وكتاب "الروح". المسمى: "اللمحات القدسية في متعلقات الروح الكلية".

- و"الصبابة في شرف الصحابة"...وغير ذلك.

ونظرا لأهمية العقيدة ومكانتها؛ فإن الكتاني يرشد أتباعه للاعتناء بها، واستكناه مهامها، والتحصن بمعرفتها، ومعرفة دلائلها ووسائلها. فيقول في "العقائد الستة والستون": "اعلموا إخواني أنه يجب على كل مكلف شرعا أن يعرف ما يجب في حق مولانا جل وعز، وما يستحيل، وما يجوز، وكذا يجب عليه أن يعرف مثل ذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام"[1].

كما يقول في "مدارج الإسعاد الروحاني" عند تعداده للعلوم: "أما الكلام؛ فمعيار كل صناعة، وزِمام كل عبارة، وقسطاسٌ يُعرف بها الفضل والرجحان، وميزان يعرف به الزيادة والنقصان، ومحك يتميز به الخاص والعام، والخالص والمشوب، ويُعرف به الإبريز والسَّتُوق[2]، وينظر به الصفو والكدر، وسُلم يرتقى به إلى معرفة الصغير والكبير، وأدلة للتفصيل والتحصيل، وآلة لإظهار الغامض المشتبه، وأداة لكشفه الخفي والملتبس، وبه تُعرف ربوبية الرب ﷻ، وحُجة الرسل عليهم السلام،

(1) "العقائد الستة والستون" ص1، رسالة مخطوطة ضمن مجموع بخط العلامة مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمراني، بحوزتي صورة منها.

(2) السَّتُّوقُ: أردأ من البهرج، وعن الكرخي: الستوق عندهم ما كان الصفر أو النحاس هو الغالب الأكثر. "لسان العرب" مادة "ستق".

ويُحترز به من شبهات المقالات، وفساد التأويلات، وبه تُدفع معضلات الأهواء والنِحَل، وتبطل تأويلات الأديان والملل، وينزه عن غباوة التقليد، وغمة الترديد"[1].

وهو تعريف شامل لمواضيع العقيدة واستعمالاتها، سواء بما هي عليه في الداخل؛ بمعنى مواضيعها هي، واستعمالاتها في الخارج؛ بمعنى المناظرة بها والاحتجاج بها لدى الخصم على صدق ما عندنا من اعتقاد ديني، وباديء إسلامية قويمة.

والعقيدة بهذا التوظيف؛ تعتبر ذات شقين:

الشق الأول: موضوع العقيدة وأبوابها.

الشق الثاني: الوسائل والآلات، أو ما يصطلح عليه بعلم الكلام. وهو الارتباط بين الدليل والمدلول، ومعرفة منزع الدليل ووجه الاستدلال منه.

ولذلك نجد الكتاني يتحدث عن الدليل والمدلول، وما يؤدي إليه، في "الحكم الإلهية والمحمدية"، التي جعلها دستورا جامعا لمنهجه العقدي والسلوكي والعرفاني على حد سواء، فيقول: "أول ما تطمح إليه العنايات: تصحيح المعتقدات. الدليل ليس بمعط الدلالة من نفسه، وإلا لما تخلفَت عن ناظر فيه. من تَكَشَّفَ وجوهَ مقتضى الدلالات، ووقف على ما تقتضيه سواطع المرسومات؛ أعوزه الحال عن مطامح الكشوفات والعيانات، لو كان الدليل الرسمي دون العيان كافيا في الاهتداء السيري؛ لما انقطع أحد عن الوصول، إذ وجه الدلالات من الأدلة مبذول لكل طالب، فمن انقطع كيف انقطع ؟!"[2].

وهنا يقسم الكتاني وسائل الاستدلال إلى ثلاث:

1- الدليل السمعي: وهو الكتاب والسنة.

2- الدليل العقلي؛ وهو: المنطلق والفلسفة، ووسائل المعرفة.

3-الدليل الروحي؛ وهو: الكشف والعرفان. فيعتبر الكشف والعرفان وسيلة أساسية من وسائل الاستنباط العقدي لا يمكن الغنى عنها، وذلك ما سأزيده بيانا في الخاتمة إن شاء الله.

كما يعتبر الكتاني إشهاد المرء بعقيدته أمرا بالغ الأهمية؛ إذ:

1- فيه اقتداء بالأنبياء والرسل الذين جاهروا بدعوتهم.

---

(1) "مدارج الإسعاد الروحاني" ص192.

(2) "الحكم الإلهية والمحمدية" ص2 حجرية.

2- إشهاد الله تعالى على النفس وهو أعلم بها.

3- الإكثار من سواد الإسلام.

4- استهداء الناس واسترشادهم في حالة فساد الاعتقاد[1].

يقول الكتاني: "وكذلك ينبغي لكل مؤمن أن يصرح بعقيدته، وينادي بها على رؤوس الأشهاد، فإن كانت صحيحة؛ شهدوا له بها عند الله تعالى، وإن كانت غير ذلك؛ بينوا له فسادها ليتوب منها، وقد أشهد هُودٌ قومه - مع كونهم مشركين بالله تعالى - على نفسه بالبراءة من الشرك بالله، والإقرار له بالوحدانية؛ لما علم أن العالم كله سيوقفه الله تعالى بين يديه، ويسألهم في ذلك الموقف الأعظم الأهول، حتى يؤدي كل شاهد شهادته، وكل أمين أمانته، والمؤذن يشهد له كل من سمعه حتى الكفار، ولهذا يُدْبِر الشيطان إذا سمع الأذان وله ضراطٌ حتى لا يسمع أذانَ المؤذن[2]، فيلزمه أن يشهد له، فيكون من جملة من يسعى في سعادته، وهو - لعنه الله - عدوٌّ محْض، ليس له إلينا خير البتَّه"[3].

كما أن للكتاني رسالة "العقائد الست والستون"؛ وهي: مجمل ما يجب لله تعالى، وما يمتنع في حقه، وكذا ما يجب للأنبياء عليهم السلام ويمتنع في حقهم، وزعها على أتباعه، وألزمهم بحفظها، بل جعلها من عهود طريقته، وهذا يبرز لنا أهمية جانب العقيدة لديه. قال في آخرها: "فتلك ستة وستون عقيدة تدخل تحت لا إله إلا الله مُحَّد رسول الله، ﷺ، يجب على الذكور والإناث، والعبيد المكلفين أن يحفظوها. وإذا كان الذاكر للهيللة يستحضر احتواءها على هذه الصفات الكريمة، والنعوت القدسية؛ حصل على سر جليل، ونور عظيم، وفائدة تامة. وحسبنا الله ونعم الوكيل".

"وهو عهد منا إلى سائر تلامذتنا أن يحفظوها أولا إجمالا، ثم يبحثوا عن معانيها تفصيلا، وعهدٌ منا إليهم أيضا؛ أن مقدّمي الطائفة الكتانية عندنا مهما لقنوا الورد لمريد؛ إلا ويشترطوا عليه حفظ العقائد، ويأخذوا عليه العهد بذلك كما أخذناه عليهم. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[4].

المطلب الثاني: ربط السلوك بالأسماء والصفات:

يعتبر باب الأسماء والصفات هو الأصل الأصيل في البحث العقدي للشيخ الكتاني، ولا غرابة في ذلك؛ فهو مرتبط مباشرة بالإله، خالق كل شيء، والعقيدة الإسلامية كلها مبنية على الله تعالى. فالسير العقدي للكتاني مبني على هذا التدلي:

([1]) "مدارج الإسعاد الروحاني" ص193.

([2]) إشارة إلى حديث: "إذا نودي بالصلاة؛ أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين...". الحديث، رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأذان، باب: فضل التأذين، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

([3]) المصدر السابق.

([4]) "العقائد الستة والستون" ص2.

- الذات الإلهية هي أصل كل شي.

- الصفات الإلهية مرتبة بالذات.

- الأسماء الإلهية المنبثقة عن الصفات.

- ثم انفعال مضامين الأسماء والصفات في الخارج، وبها تكونت الأكوان.

- وهذا الانفعال أول ناتج عنه هو الحقيقة الأحمدية. فالحقيقة الأحمدية؛ هي الواسطة بين الأسماء والصفات وانفعالاتها.

- عن الحقيقة الأحمدية انبجست الحقيقة المحمدية.

- ثم ظهور الأكوان.

ولذلك فإن باب الأسماء والصفات يعتبر محوريا في السلوك لدى الشيخ الكتاني، ولا يمكن الحصول على نتيجة ما، ما لم تكن منفعلة عن هذه التربية.

يقول في "رسالة المؤاخاة": "فاحرصوا إخواني في درك طعم الإيمان كي يحملكم ذلك على المجاهدة في الطاعات وامتثال القربات، وعدم الملل والكسل، وعدم مراقبة الخلق، وعدم الخوف منهم، وعدم رجاء شيء منهم، وعدم جعلهم العمد إذا دهمتك المضايق الدهرية، فليكن الله أجل وأعظم منهم في هذا كله، ذوقا لا لسانا وشقشقة".

"فإن من ذاق هذا المقام –ولو بطرف لسان– تراه ذا سكينة ووقار، وخشية ومراقبة على الدوام، ولو في حالة الأكل والشرب، والتطيب والجماع والبسط، وصاحب فكرة مشغولة مشعولة، وصاحب ذكر دائم، وصاحب إقبال على الله دائم، وصاحب ضحك بتبسم وعدم رفع الصوت بالضحك؛ لأنه من الغيبة عن الله، وعدم مد الرجل إلا إن استحكمت الغفلة، أو طرأ النسيان؛ فإن من عرف جمال الله وجلاله؛ جالسه على الدوام كما تنبغي مجالسة الملوك، ومن لم يعرف هيبة الله وسطوته؛ فقد دللناه عليها؛ فليقتف آثار قوم طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا[1]"[1].

([1]) يشير للأبيات المشهورة: [الرمل]

إن لله عبـــادا فطنـــا ... طلقـــوا الـــدنيا، وخـــافوا الفتنـــا
نظـــروا فيهـــا، فلمـــا علمـــوا ... أنهـــا ليســـت لحـــي وطنـــا
جعلوهـــا لجـــة، واتخـــذوا ... صـــالح الأعمـــال فيهـــا ســـفنا

قال القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي المعافري: "كان كثيرا ما ينشدنا مُحَمَّد بن الوليد [أي: الطرطوشي]...ثم ذكر الأبيات"، وهي للفضيل بن عياض رضي الله عنه. "الصلة" لابن بشكوال (2: 575).

فيظهر جليا كيف يربط الكتاني بين مفهوم "الإيمان" وأعمال الجوارح، باعتبار أن الإيمان اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، فالإيمان الحقيقي هو الذي يتجلى على سائر أعمال المرء، الظاهرة والباطنة:

يقول في "رسالة المؤاخاة": "فمن كان يعلم أن الله مطلع عليه؛ فليعامل الله معاملة من يعبد والناس ينظرون إليه؛ أفيدع شيئًا من التحسين والتنميق؟!؛ لا؛ لا!، وإن ادعى أنه لا يرضى بهذه الرتبة؛ فليعامل معاملة من كأنه يرى الله حالة العمل؛ فلينظر أي شيء يعمل. أيعمل وأعضاؤه تتقطع، وفؤاده يتفتت، وروحه تضطرب، ونفسه تتصاعد شوقا إلى لقائه، وعقله ينازعه في ترك الأغيار[2] والغشاوات، ويده لا تفتر عن العمل، ولسانه لا يسكن من الذكر، ورجله لا تزال مقيمة بالأماكن المقدسة كي يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؟ "ومنهم: رجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه؟[3]"[4]. "ولا تشترط الخلوة المعلومة في نيل هذا الأجر؛ بل المراد منه: ذكر الله ولو في الملأ، غير أن قلبه خلا عن ملاحظة غير الله، واعتباره: بفنائه فيه، واستغراقه في محبته، واصطلامه تحت أنوار مشاهدته، وغيبوبة فكره في أنوار جبروته، ووقف عقله على اقتناص الشوارد من ميادين القرب، وتحبيس نفسه على الفناء عن المشتهيات والملذوذات، والمشروبات والملبوسات، والمنكوحات والمشمومات؛ شغلا بربه، وامتلاء بحبه، وتقربا بشوقه، مؤتزرا بصبره، متعمما بخوفه، متقمصا برجائه، متمنطقا بإيمانه، متسرولا بهدايته. ومن كان لا يعلم أن الله مطلع عليه حالة العمل؛ فالخلل في إيمانه!"[5].

كما يتحدث الكتاني في "رسالة الفرق بين الواردات" عن النورين الجامعين الذين على الذاكر استحضارهما في الذكر لتحصل له نتيجة الذكر؛ وهما: نور النبي ﷺ؛ باعتباره الواسطة في معرفة الله تعالى، ونور الحق تعالى؛ باعتباره سبحانه هو المقصود.

([1]) "سفينة المحبة" ص82 ضمن مجموع "النفائس الكتانية" 1-11.

([2]) الأغيار ج غير: والمقصود به: ما سوى الله تعالى. "لسان العرب" مادة غير.

([3]) جزء من حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة. أخرجه البخاري في صحيحه (660)، ومسلم (38)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

([4]) "سفينة المحبة" ص78 ضمن مجموع "النفائس الكتانية" 1-11.

([5]) جزء من حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة. أخرجه البخاري في صحيحه (660)، ومسلم (38)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

وبعد أن استعرض النور المحمدي – حسبما سيأتي لاحقا في محله بإذنه تعالى – تحدث بإسهاب عن النور الجامع الثاني: النور الإلهي، النور الحق، النور القدس، نور السماوات والأرض[1].

قال في طريقة استحضاره: "فيلاحظ نفسه مستغرقا فيه، وذاهبا في تياره، وهائما في وسعه، ولهًا في لذاذات إحراقات شعاعاته، وهذا النور يستحضره لا في حالة ذكر الكلمة المشرفة [الله]، ولا في حالة ذكر الأسماء الإلهية، ولا في حالة ذكر الاسم الهوية، ولكن يحبس النفس ويكررها بقوة وهمة تامة، بحيث يتأثر به من غير أن يظهر على ظاهره أثرها في باطنه، بحيث لا يشعر به جليس جنبه".

"ويجعل أوقاته مستغرقة فيه، منهمكة به في أيامه ولياليه، ولا يتركه لشغل، ولا يهمله لعُذر، لا في القيام والقعود، ولا في الركوع والسجود، ولا في الاستقامة والانحناء، ولا في الشدة والرخاء، فحينئذ يظهر المطلوب من الحرارة الغريزية، والحرقة الباطنية، والحركة الفؤادية؛ أي: يتشرق صاحبه بالتجلي، وهو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب"[2].

هنا بعد تثبيت الإيمان؛ نجد الكتاني يدخل أكثر عمقا، فيبدأ بالتربية بأسماء الله الحسنى، التي مثل فيها هنا بالاسمين: هو. والله. وكذا سائر أسماء الله الحسنى. ثم يتحدث عن أمهات الغيوب الناتجة عن هذا الاستحضار لله تعالى ولأسمائه الحسنى، والمداومة على ذلك، ويجعلها سبعة غيوب:

1- غيب الحق وحقائقه.
2- غيب الخفاء المنفصل من الغيب المطلق بالتمييز الأخفى في حضرة {أَوْ أَدْنَى}.
3- غيب السر المنفصل من الغيب الإلهي بالتمييز الخفي في حضرة {قَابَ قَوْسَيْنِ}[3].
4- غيب الروح؛ وهو: حضرة السر الوجودي المنفصل بالتمييز الأخفى في التابع الأمري.
5- غيب القلب؛ وهو: موضع تعانق الروح والنفس، ومحل استيلاء السر الوجودي، ومنصة استجلائه في كبوة أحدية جمع الكمال.
6- غيب النفس؛ وهو: أنس المناظرة.
7- غيب اللطائف البَونية؛ وهي: مطارح أنظاره لكشف ما يحدث له جمعا وتفصيلا[4].

قال الكتاني: "فإذا واظب الطالب عليه زمانا، وداوم عليه أياما؛ ظهر أثر الغيبة وعدم الشعور في بعض الأحيان، وهو مقدمة الجذبة، فلا يغفل عنه، وإن وقع الفتور؛ يستغفر الله تعالى ويرجع لذلك

([1]) "الفرق بين الواردات" ص141، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

([2]) المصدر السابق ص141، 142.

([3]) يشير بهما لقوله تعالى: { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}. [النجم: 9].

([4]) "التعريفات" ص53.

الحضور. وبعده تحصل له الملكة التامة الطاردة جيشَ الغفلة عن ساحة القلب، لكن بشرط أن لا يريد من اللفظ المبارك إلا الذات المقدسة عن جميع الكيفيات المتخيَّلة!"[1].

ويربط الكتاني في "الأمالي في علم الأمهات"[2] مسألة حياة الجمادات والأعراض بمباحث الأسماء والصفات، فيجعلها نتيجة لكون اتحاد الأسماء والصفات في المدلول.

ومسألة حياة الجمادات نجده يستثمرها في "علم المراقبة"؛ بمعنى الوسائل التي يتبعها السالك أثناء سلوكه، وهي مقام الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. كما في حديث جبريل المشار إليه فيما مضى.

يقول الكتاني: "فكم شاهدنا من هذا في بداية دخولنا للطريق وما لا نحصره، حتى علمتني الجمادات عند الناس علم المراقبة مع الله، وعلم المراقبة مع الخواطر المختلجة فينا، فلا تدخل إلا وأنا على حالة حسنة، بمجرد ما تداخلني الخواطر؛ تتكيف بالحالة التي وجدَت عليها قلبي، فلا تخرج إلا وهي على صور حسنة يبتهج بها كل رائيها، إلى أن تُرفع مع العمل الصالح الذي يرفعه الله، وبهذا كان صالحا لا بغير هذا العلم...فعلمتني الجمادات لما شاهدت حياتها الأدب مع التكاليف من حيث هي!"[3].

ويولي الكتاني الأسماء والصفات اهتماما خاصا في السلوك، فجل كتبه تتحدث عنها؛ خصوصا شروح "الصلاة الأنموذجية"، كما يلخص أفكاره الجامعة بين علم الكلام وعلم السلوك في كتابه: "الحكم الإلهية والمحمدية"، فيقول فيما يتعلق بالأسماء والصفات:

"الذكر الحقيقي: أن تطالع بالصفات التي دل عليها الاسم، فتنشيء بها من حيث ذاك لا من حيث الاحتجاب بالرسوم. الذكر الحقيقي: أن تشهده مُثنيا على نفسه بإسقاط الرسم والوسم بالدلالة على الأسماء؛ لتتحقق بأثَرَات الخلافة عنه، فتُثني عليه من حيث أثنى على نفسه ولستَ منشئًا للثناء".

"الذكر الحقيقي: أن تنفرد عن الأشياء إذا أثنيت عليه بأسمائه؛ لعلمك بأن لا مناسبة بين عزة الذات وذلة الحدوث، حتى تنطبق شفتاك على الحروف الدالة عليه، فأنت المذكور في الحقيقة إذا ذكرته بأنك ذكرته لا هو المذكور بك. وإلا؛ فحيث كان الأولَ والآخر، والظاهرَ والباطن؛ فأين أنت واعتباراتك ونِسَبك؟".

([1]) "الفرق بين الواردات" ص143، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

([2]) "الأمالي في علم الأمهات" ص290، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

([3]) المصدر السابق ص292 باختصار.

"الذكر الحقيقي: أن تطمح لمعاني الأسماء حتى تتخلق بها على القانون المعلوم؛ وهو: أن لا تنحجب عن مركز عبوديتك، فكأنك في الحقيقة ما تخلقت إلا بظلال الأسماء لا غير، فإذا تخلقت بها؛ عرفت الاسم من فوق لا من تحت، وكل من نظر للأشياء من فوق؛ وجد لها طعما آخر لا يجده لها من نظر إليها من تحت".

"الذكر الحقيقي: أن تشهد لسانك عند ذكر اسمه كأنه شجرة موسى؛ سمع منها الكلام الإلهي، والكلامُ صفة المتكلم، لا وصف الشجرة، فهو المثني على نفسه في مظهريتك ليُعلمك جلالتك عنده فتخشاه!"[1]. والكتاني يذكر كل صفة من الصفات الإلهية التسعة والتسعين، وكيفية التخلق بها، ليعلم المريدين كيفية السلوك باعتماد أسماء الله تعالى وصفاته، وقبل ذلك يُبرز أهمية التعبد بأسماء الله وصفاته، ويعطيها مكانة محورية في السلوك قائلا:

"من لم ير انتساج الأشياء، من مقتضيات الأسماء؛ هوت به ريح البعاد في مكان سحيق. {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. [النور: 35]، إن لم تعرف ربك من طريق الأسماء؛ كنت بعيد المرمى، وخرجت من الأكوان أعمى، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا[2]، عندك من الإنسانية بقدر ما عندك من التحمل لأسرار الأسماء الحسنى، خَلِّص إنسانيتك من تحكُّمات الطبع؛ تُدْرَج مدارج العالين المهيَّمين، الإنسانية ثلاث شعب: تعلق، وتخلق، وتحقق بمعاني الأسماء"[3]...

ومن مثال ذلك قوله عند الاسم "الحي" الذي افتتح به: "إن دخلت حضرة اسمه "الحي" تعلُّقًا؛ تحققتَ بحياة الأشياء، وعلمتَ أن الحياة تتعلق بكل شيء، وأسمِعتَ تسبيح كل شيء تسبيحا قاليًا، وكوشفت باختلاف أفانين التسبيح باختلاف جوهرية الأشياء وعرَضيتها، واختلاف التسبيح منها بترادف الشؤون"[4]...الخ وهكذا.

(1) "الحكم الإلهية والمحمدية"ص10 حجرية.

(2) إشارة للآية: { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }. [الإسراء: 72].

(3) "الحكم الإلهية والمحمدية" ص11 حجرية.

(4) المصدر السابق.

المطلب الثالث: ربط السلوك بالنبي ﷺ:

للنبي ﷺ مكانة خاصة لدى الشيخ الكتاني؛ إذ جل مؤلفاته تدور حول كمالاته ﷺ، وخصائصه، وما يتعلق به، كما نجده يعتبر النبي ﷺ الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه في كل شيء، وبذلك فلا غرو أن يكون السلوك لديه مبنيا على التعلق بالنبي ﷺ التعلق الخاص، بمقتدى ما سطره حوله من معارف ومقامات.

كما أن جل مباني ورده اللزومي على الصلاة على النبي ﷺ، علاوة على أوراده الخاصة، وصلواته الكثيرة التي عني بعض كبار أتباعه بشرحها وخدمتها من الناحية العلمية والصوفية.

وسأعمل هنا على توضيح جوانب استثمار الكتاني لعقيدته في النبي ﷺ في منهجه السلوكي، سواء على المستوى العملي والتشريعي، وعلى المستوى العرفاني، وعلى مستوى العروج في مقامات الصديقين.

قال الكتاني في "رسالة المؤاخاة": "ومن أسباب انحطاط الإسلام: عدم العمل على كتب الحديث في باب التأديب والتهذيب، والأخلاق والمعاشرة، والرقائق والآداب، وأما الأحكام: الحلال والحرام؛ فعلى صحيح المذهب"[1].

يتحدث الكتاني في رسالة "الفرق بين الواردات" عن أنواع الواردات التي تمر بالإنسان، وهي منبع جميع أعماله، فيقسمها لأربعة: الرباني، والملكي، والنفسي، والشيطاني، يقول: "ثم إن مادة الخواطر لا تنقطع، ولا تضعف، ولا تنخنس الإلقاءات الشيطانية إلا بدوام الذكر، وعدم الفتور عنه لا في العادات ولا في العبادات، ولا في سائر أطوار الإنسان"[2].

ثم يصف الكتاني طريقة الذكر، ويجعله مقاما على ملاحظة نورين جامعين: النور الأعظم المحمدي، والنور الإلهي، وقد تحدثت في المطلب الفائت عن استحضار النور الإلهي.

أما النور المحمدي؛ فيقول عنه: "ويجتهد في استحضار الهمة المحمدية معه من كل جهاته، ولا يثبت مع همته صلى الله عليه سوًى ولا غير، ولا أكدار ولا أغيار، ولا سلاطات ظلمانية، ولا تسوُّرات رجيمية؛ لأن القلب بمثابة السماء، وقد كان عالم الأفلاك قبل قدومه صلى الله تعالى عليه لعالم الشهادة غير مصون من النفوذ الشيطاني، فلما بعثه سبحانه قالوا: { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ

([1]) "رسالة المؤاخاة" ص62، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11". وصحيح المذهب بالنسبة للكتاني هو: ما عضده الدليل.

([2]) "الفرق بين الواردات" ص137، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً }. [الجن: 8، 9]"

"وكذلك القلب قبل استحكام مصاحبة نوره صلى الله تعالى عليه معه، وتمكين الروابط المعنوية معه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، للشيطان النفوذ الكلي فيه، حتى لا يجد للعبادة لذة ولا طعما ولا ذوقا".

"وأما إذا استحكمت مصاحبته – صلى الله عليه – البرزخية في سرك، بحيث لم تزل تستحضره وتتكلف إحضار صورته الكريمة في عالم خيالك إلى أن تأخذها مرآتك فتحفظها؛ فهنالك يُحفظ باطنُك من الأغيار والأكدار، والتشويشات والتغييرات والتفريقات، بسبب دخول النور المحمدي للقلب".

"إذ هو صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم الإنسان الكامل، فقصر النظر عليه متضمن للتوجُّه للعالم الأكبر والأوسط والأصغر، بل الحقائق الإلهية".

"فمن هناك كان حفظ صورته الكريمة في مرآة القلب يتضمن حفظ الباطن من الأغيار؛ لأن الإنسان الكامل هو: الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية، الكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية، فمن حيث روحه وعقله: كتاب عقلي مسمى: بأم الكتاب، ومن حيث قلبه: كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه: كتاب المحو والإثبات، فهو الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهَّرون من الحجب الظلمانية!"[1].

فالتعلق بالنبي ﷺ وانطباع صورته الشريف في الذهن؛ يجعل الإنسان محروسا من وسوسات الشياطين، ونزغاتهم. وهي مسألة سلوكية غاية في الأهمية؛ إذ بتحصين القلب من نزغات الشيطان ووساوسه، يصبح مهيأ للتجليات الإلهية، والنفثات الروعية.

وقد جعل الكتاني الاستعانة على هذا المشهد بأمور حددها في التالي:

- معرفة الشمائل المحمدية، والتغلغل فيها، وإدمان مخالطتها حتى ترسم تلك الصورة الكريمة المحمدية التي لا يتمثل الشيطان بها في مرآتك.

- عدم الخروج عن السنة المحمدية ظل نَفَس في العادات والعبادات، والمعاملات والمعتقدات؛ فإنه بهذا تتوفر له الأنوار، ويقرب من عالم المعاني، ويتباعد عن عالم الأكدار؛ قال: "لأن السنة المحمدية؛ هي - في الحقيقة - صورة سير العالمين إلى ربهم سبحانه، لو تم لهم التوفيق؛ لما انقطع أحد، ولوصل الجميع؛ لأنها لا يوصَل بغيرها، وهي عنوان الوصول، وهي مِعصم الوصول، وهي

(1) المصدر السابق ص138.

الضياء في مدلهمات الحوالك البشرية والدهرية: { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}. [آل عمران: 32]، فتأمل جلالة النبوة في هذه الآية الكريمة، وهذا التوعد العظيم على الإعراض عن السنة المحمدية"[1]..

- ومنها: عدم الغفلة عن الصلاة على مركز دائرة الأنوار صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، في كل حين، فبها تقوى الرابطة معه صلى الله تعالى عليه، مع استحضار مجالسته صلى الله تعالى عليه؛ لأنه جليس المصلين عليه. قال: "فإنه سبحانه أدبه فأحسن تأديبه[2]، وليس التأديب إلا بالتخلق بأخلاق الله تعالى، وهو تعالى جليس من ذكره[3]، فهو صلى الله تعالى عليه جليس من صلى عليه!"[4].

ويحث الكتاني مريديه على مداومة الصلاة على النبي ﷺ والاستغراق فيه؛ حتى تتلطف الكثائف، وترق مراتب الظلام التي خُلقت عليها الذات الإنسانية، فإن الصلاة على مولانا رسول الله أم السعادات، وأساس الكمالات والقربات[5].

ويربط الصلاة على النبي ﷺ بمعرفة مقداره عليه السلام، وشمائله الظاهرة والباطنة: "وإذا تيقَّظ الإنسان لما تلوناه وشرحناه، وعلم جلالة مركز دائرة الأنوار؛ انبعثت من قلبه دواعي الإكثار من الصلاة والسلام عليه، قياما وقعودا، وفي المنشط والمكره، والعسر واليسر، واليقظة والنوم، وفي الأكل والبيع والشراء"[6].

ويتحدث عن مقدار النبي ﷺ ومكانته، محفزا المريدين على دوام استحضاره والصلاة عليه، في ربط واضح بين مباحث العقيدة ومباحث السلوك:

"وقد جعل الله لسيدنا مُحَّد من الجاه ما لم يجعله لغيره في العوالم كلها، فمن تعلق به أدنى تعلق، وانتسب إليه أدنى انتساب، وانحاش إليه أدنى انحياش؛ أخذ الخير بكلتا اليدين، وسقي من

---

(1) المصدر السابق: ص140.

(2) قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}. [القلم: 4]، وأما الحديث؛ فـ "أدبني ربي فأحسن تأديبي"؛ فمروي لكن بأسانيد ضعيفة جدا كما في "كشف الخفا" (1: 72).

(3) أخرج البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ}. [آل عمران: 28]، ومسلم في صحيحه أيضا: كتاب: الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني..". الحديث، وروى ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم: 34287) والبهقي في "شعب الإيمان" (1: 451)، رقم 680: موقوفا على كعب الأحبار قال: "قال موسى عليه السلام: يا رب؛ أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟. فقيل له: يا موسى؛ أنا جليس من ذكرني!"..الأثر..

(4) "الفرق بين الواردات" ص140، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

(5) "الرسالة إلى أهل سلا في فضل الصلاة على النبي ﷺ" ص164، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

(6) المصدر السابق ص166.

حضرة العين، وانزاح عنه الغين...وانظر كيف ملأ الله جل أمره العوالم كلها بالشغل به ﷺ وعلى آله: عالم العزة، وعالم الملكوت، والعالم الأرضي؛ فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}. [الأحزاب: 56]. فحضرة الربوبية: حضرة العزة. وحضرة الملائكة: عوالم التقديس. وقد ملأها سبحانه بالثناء عليه والشغل به، وكذلك العوالم الأرضية؛ فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}. وهذا مجموع أصول العالم!"[1].

كما يرى الكتاني أن الله تعالى ما ذكر صفة من صفاته سبحانه؛ إلا وقرنها بصفة من صفات نبيه ﷺ، حتى في الأمور التي لا يُظن أن يشرك الحق سبحانه معها أحدا من خلقه؛ فقال تعالى: { وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ }. [التوبة: 74]، وقال سبحانه: { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ }. [الأحزاب: 37]، وقال: {سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ}. [التوبة: 59]، وقال ﷻ: { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ }. [البقرة: 279]، وقال عز وجل: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ}. [التوبة: 62]. وقال: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}. [الأنفال: 24]..وهكذا.

قال: "فلما علمنا هذا من سُنة الحق جل سلطانه؛ تأكد على الخق تأكدا تاما، وطُلب منهم طلبا حتما أن يتيقظوا لهذا الإجلال وهذا التشريف، الذي شرف به سبحانه نبيه وحبيبه ومصطفاه، ويكونوا على أهبة ويقظة كلما جرى ذكرُ ربهم - جل أمره - وذكروه إلا ويهرعوا ويذكروا نبيهم، إن ذُكرت النعوت؛ فتذكر النعوت، أو الأوصاف؛ فتُذكر الأوصاف، أو الاسم؛ فيذكر الاسم، أو الثناء المطلق؛ فيُشكر مولانا رسول الله ﷺ؛ لأنه الواسطة في جميع النعم الدينية والدنيوية، والمُلكية والملكوتية، الأولية والآخرية، الدنيوية والأخروية"[2].

ويبرز الكتاني نتيجة إهمال هذا الجانب، ناعيا على من يخالف فيه قائلا: "وقد جربتُ كل من يحاك هذه المسألة أنه: ليس للسنة وقع عظيم في قلبه؛ أعني: ليس له كبير بحث في علم طرق السنة أولا، وتتبع مظانها في العمل بها ثانيا، والتحسر على ما فاته من العلم بها ثالثا، والعمل بها رابعا، وحمل الناس على علمها والعمل بها خامسا، وقل من تجده يحاكك في هذا الباب إلا وهو هكذا، ولا تجد شخصا يحاكك في هذا إلا وتجد أعماله غير معتد بها؛ لأنه ليس له سريان مُحَمَّدي في جواهر أحواله حتى تصلح لأن تُدرج مَدرجة القبول، وتجد العسر محيطا به دائما؛ لعدم تعلقه بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله التعلق الخاص!؛ إذ التعلق الخاص به ﷺ وعلى آله ينتج ما لا تنتجه كثرة

([1]) المصدر السابق ص166-167 باختصار.

([2]) "رسالة الاقتران" ص187، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

الأعمال الصالحة مع عدم الانتماء لمركز دائرة الأنوار الانتماء الخاص؛ إذ ليس في الوجود من له الحل والربط، والنقض والإبرام إلا مولانا رسول الله ﷺ!"[1].

ويقول في معرض الحث على ذكر أسماء النبي ﷺ: "وكثيرا ما أشعر بانطفاء شيء من الغضب الإلهي في العالم إذا جرى اسم موافق لأسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لقب موافق لألقابه صلى الله تعالى عليه؛ لأن الأشياء كلها تهابُه صلى الله تعالى عليه وعلى آله، حتى المعاني والحضرات الكبرى، وإذا ثبت حديث: ما في السماء ملك إلا وهو يوقر عمر، ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرَق من عمر[2]. فكيف بمشرف الجميع، حامل اللواء للوجود كله، وزعيم الخلائق أجمعين في النشأة الأولى الروحية، والنشأة الثانية هذه، والنشأة الآخرة؟!".

"هذا في مطلق الأسماء والصفات المشاكلة لأسمائه؛ فكيف بأسمائه المحمدية، أو صفاته المحمدية الساذجة، أو نعوته الأحمدية الصرفة، فكيف بالإدمان على ذكرها، والتحدث بها؟!؛ فهو العرش الرحماني الذي تجلى الله تعالى عليه بمقتضى وُسع الرحمانية بوسعيته، ومن ذلك وسع صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله العالم كله، وسعه رحمة وأُرسل رحمة للعالمين، وهو أرجى ما يرجاه الخلائق..."[3].

ويفصل الكتاني في "الحكم الإلهية والمحمدية" ص42 فما بعدها، كيفية السلوك بالاستغراق في النبي ﷺ، سواء في أحمديته ومُحَّديته، ومن ذلك يقول: "إذا أثنيتَ على المحمدية بالمحمدية؛ فقد مدحتها بلسان الناس، وإذا صليت عليها بالأحمدية؛ فقد أثنيت على ربها سبحانه بلسانها، وشتان بين المدحتين والثناءين!. ما دمتَ لم تنصبغ بالملكات المحمدية وأنت كثيف الجوهر. الجمال المحمدي مرآة الذات، فعلى قدر فنائك فيها على قدر بقائك بربك، على قدر بعدك عنها، على قدر انحجابك عن ربك: لن يرى أحدكم ربه حتى يموت[4]".

"إن لم تتحقق المناسبات بينك وبينه؛ لم يمكنك الاجتماع به ولو في الخيال. أدنى الرائين للجمال المحمدي: من يراه كأوائل طلوع الشمس. الذات المحمدية ثمرة الوجود باعتبار وأساس الوجود باعتبار. تحقق بأوصافه المحمدية؛ تلُح لك الخيام. تحقق بأفعاله المحمدية؛ تنقشع عنك الأوهام.

([1]) المصدر السابق.

([2]) حديث رواه ابن عدي في "الكامل في الضعفاء" (6: 349) ترجمة موسى بن عبد الرحمن، رقم 1831، ووالديلمي في "الفردوس" (4: 105، رقم: 6334)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (44: 85) عن ابن عباس رضي الله عنه. ولمعناه شواهد.

([3]) "رسالة الاقتران" ص188، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

([4]) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر ابن صياد، عن عمر بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه مرفوعا.

تحقق بأسمائه المحمدية؛ تنقلب منك أعيان الأجرام. تحقق بذاته المحمدية؛ تبصر مِن وراء وأمام"[1]...الخ.

المطلب الرابع: ربط السلوك بالقضاء والقدر:

تحدثت في الفصل السابق عن مذهب الكتاني في القضاء والقدر، وأنه وسطٌ بين القدرية والجبرية، فعند حديثه عن السلوك يكون قريبا للقدرية، وعند الحديث عن الحقائق يكون قريبا من قول الجبرية، وعند تقرير الاعتقاد والبحث فيه يكون صاحب اختيار بين أقوال أهل السنة والجماعة.

فهو يرى أن الخلائق كلها مجبَرة على تسبيح الله تعالى وتقديسه، وتعظيمه، وعبادته، من حيث شاءت ومن حيث لم ترد، ولكن قهرًا عليها؛ ففي حال غفلتنا عن الله وحال انهماكنا في المعاصي تراكيبُ هيكلنا تسبح الحق، وفي حال الزنى وشرب الخمر، والنوم والفسق، وسائر أنواع الضلال كلها؛ عناصرنا وأخلاطُنا وموادنا تسبح على سبيل القهر منا من غير شعور منا بذلك[2].

قال: "وعليه؛ فما خلُصت لنا معصية قط إلا وهي مخلوطة بطاعات وقربات وكمالات، فيكون الوجود كله منخرطا في سلك: {خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}. [التوبة: 102]، و"عسى" من الحق للتحقيق إلا في موضع؛ فإذًا؛ من صدر منه ذنب؛ [فهو] مخلوط بالعمل الصالح!".

"وكل من وقع منه هذا المزجُ البديع؛ سبقت إرادةُ الحق أن لا بد من أن يتوب عليه، وإذا تاب عليه؛ تاب هو في الحين من غير تقهقر ولا توان؛ لقوله: { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا}. [التوبة: 118]، وهذه كلها إخبارات من الحق، وفي القرآن: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}. [النساء: 27]، وهذه الآية وما بعدها؛ أعني: { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ }. [النساء: 28]؛ لو قيل: إنهما أرجى شيء في كتاب الله ما بعُد!".

"ثم أقام الحق لنا عذرا؛ فقال: {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً}. [النساء: 28]، وإذا كانت بنيته كذلك؛ فكيف لا يخفف عنه ؟!. وهذا من أعظم العدل الإلهي؛ كيف لم يُخل من عبادته ذرة من ذرات الوجود، فلم يتركها هملا من خدمة عتبة حبيبه المحمدي صلى الله عليه به ؟!"[3].

([1]) "الحكم الإلهية والمحمدية" ص42 حجرية.

([2]) "نسخة من غاب عنه المطرب" ص119، ضمن "النفائس الكتانية: 1-11".

([3]) المصدر السابق.

ويتحدث الكتاني عن الحكمة من بقاء النفس، وأن السلوك لا يرمي إلى موت النفس، وانقطاع الشعور بها كلية؛ لما أن لوجودها حكمة إلهية هي من أسرار تفضيل البشر وإكرامهم بالخلافة عن الله تعالى، وهو هنا يخالف جل الصوفية، فالله تعالى – بالنسبة للكتاني – اختار لنا عالم الحسّ من دون العوالم الأخر الغيبية والشهادية؛ لتُقام شؤونه ومقتضياته، وإعطاء حقوقه، كما ينبغي إعطاء حقوق عالم المعنى[1].

يقول: "وهذه مسألة إلهية قل من ينبه عليها من أصحابنا؛ لأنهم يظنون أنه شغل، والطريق كلها أمر بالإعراض عن عالم التكثُّرات والأحداث، والتشبث بالعالم الأعلى، وهو ظن صحيح، بيد أنهم فاتهم علم آخر نبه عليه سيدنا صلى الله عليه به؛ فقال: الناس نيام، فإذا ماتوا؛ استيقظوا. أي: نيام عن عالم الحس، لا يلتفتون إليه، فلا يلاحظونه؛ لاستغراقهم بعالم المعنى...وهو يُلحق من دنا منه، فلا يبقى له التفات لغيره، لكنه إن كان غير محقق، وأما المحقِّق؛ فهو مستيقظ في عالم الحس والمعنى، يعطي المراتب حقها من جميع ما تطلب"[2].

قال: "فمن استغرق في عالم المعنى وفرط في عالم الحس؛ فهو من العامة، لا خُبر عنده ولا خبر، ومن استغرق في حضرة الحس قبل الانمحاق في بحر المعنى، وصيرورة الحكم عينا، والوجود محوا؛ فهو من الناس؛ أي: الذين نسوا عهد الحق الذي تعاهدوا عليه. وأما من استغرق في عالم الحس والمعنى؛ فهو رجل من بني آدم، وفي القرآن: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ – بر الحس وبحر المعنى – وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ – أي: معاني الأسماء والصفات المثبتة لهم في عين الانمحاق – وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً }. [الإسراء: 70]. كالمستغرقين في بر الحس من غير ملاحظة لبحر المعنى، أو المستغرقين في بحر المعنى دون البر، وأولئك فُضلوا على هؤلاء"[3].

وقد تحدث الكتاني في "الحكم الإلهية والمحمدية" عن مسائل سلوكية تترتب على القضاء والقدر، وهي منبثقة – أيضا – عن اختياراته العقدية، وآرائه الكلامية المتعلقة بذلك، أسرد بعضها مرقما بحسب ترتيب الحكم:

72: بحر الاسم المريد: وإن دخلتَ حضرة اسمه "المريد" تعلُّقا؛ انكسرت منك قوة الاعتراض على ما يجري في المماليك، وأيقنت أن العُبدان أهون من أن يجروا في المُلك ما لم يُرده المريد، وجلال

(1) المصدر السابق ص126.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق ص127.

كبريائه أعز وأمنع من أن يُرضيه إلا من أحبه. فتحقق بوحدة الأفعال شهودا، لا من باب الخطابات التي غاية ما يُحدث علمها فيك الزعازعَ والرسوم.

76: بحر الاسم القدير: وإن دخلتَ حضرة اسمه "القدير"؛ لم تركَن لعاصم سواه، وعلمتَ أنه لا ينجي منه إلا الاعتصام به، وعلمتَ أن الأراضي جميعا قبضتُه والسماواتُ مطوياتٌ بيمينه.

331: للإرادة نسبتان: نسبة إرادية؛ وهي: المقول فيها: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يريد. وهي التي يجب الرضى بها في مقول: يجب الرضى بالقضا. وهذا يجب على العارف أن لا تخالف إرادته فيها إرادة الحق، بل يلتذ بكل واقع في الملك، وقد اقتضتها حضرة الوُسع والإطلاق.

ونسبة أمرية؛ وهي: متعلق الكسب، وبها ظهر سر بعثه الرسل، وسر الأمر والنهي، وإليها يجب التفات المكلَّفين، ولولاها ما ظهر سِرُّ الأمر والنهي لولا نسبة مظهرية التكليف المنصبَّة على الإنسان، وفي هذه النسبة قيل: لا يجب الرضى بالمقضي، { وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ }. [الزمر: 7]، فهذه زُبدة تحقيق مسألة الكسب؛ فخُض لجة هذه الحقيقة صفوًا، واترك البحر رهوا!.

الخاتمة:

مما مضى يتضح لنا مكانة علم الكلام في فكر الشيخ مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني، ودوره في التربية والسلوك، فهو ليس نظريات تلاك بالألسن، ولا رياضة فكرية يستمتع بها عالم موسوعي، ولا جدل منطقي وعقدي يستلذ البحث فيه والتنقيب عنه.

ولكن العقيدة وعلم الكلام بالنسبة للكتاني منهج متكامل، يتجلى في مختلف مجالات المعرفة، وعلى رأسها التشريع والتربية، وهو وإن كان جل مجاله التربوي عرفاني عالي، فلا يخلو من إشارات قوية لجانب السلوك، والتربية العملية، إضافة للتربية الروحية والعرفانية.

فالكتاني كتب أيضا في مسائل تربوية عدة؛ أشرت فيما مضى لكتابه "الوصايا الكتانية" وكله مركز على أعمال الجوارح، وكذا يشير في غيرما كتاب إلى عدة مراجع يأمر مقدمي طريقته وخلفاءه أن يسردوها ويقرأوها للمريدين: كمنازل السائرين للهروي، و"عوارف المعارف" للسهروردي، و"الرسالة" لأبي القاسم القشيري[1].

(1) "رسالة المؤاخاة" ص63، ضمن مجموع "النفائس الكتانية 1-11".

أما "إحياء علوم الدين"؛ فيعتبر الدستور الذي منه ينهل، والمرجع الذي يقول فيه: "فما أتي على الملة إلا من عدم تأبطهم للإحياء حضرا وسفرا، قياما وقعودا وعلى جنوبهم!. ولو كنت متوليا —وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين —لسجنتُ كل من لا يخطب بها، والجموعَ التي لا تقرأ فيها، والولائم"[1].

المصادر والمراجع

1. "الإجازة الطرقية، وشروط وأركان الطريق" من ضمن مجموعة"النفائس الكتانية: (1-11).

2. "الأمالي في علم الأمهات"، من ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

3. "تاريخ مدينة دمشق"، 80 مجلدا، تأليف أبي القاسم علي بن حسن بن هبة الله ابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر، سنة 1415هـ/ 1995م.

4. "التعريفات"، تأليف السيد الشريف علي بن مُحَمَّد بن علي الجرجاني، تحقيق: مُحَمَّد علي أبو العباس، منشورات: دار الطلائع/ القاهرة، سنة 2009م.

5. "التوقيف على مهمات التعاريف"، تأليف عبد الرؤوف بن مُحَمَّد بن تاج العارفين المناوي، تحقيق: جلال الأسيوطي، منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت، سنة 2011م.

6. "الحكم الإلهية والمحمدية"، تأليف مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني، طبعة حجرية/ فاس، بدون تاريخ.

7. "خبيئة الكون، بشرح الصلاة الأنموذجية"، تأليف مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: مُحَمَّد حمزة بن علي الكتاني، منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت، سنة 2009م.

8. "ديوان ابن الفارض" تأليف: عمر بن علي بن مرشد ابن الفارض، تحقيق: مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت، سنة 2012م.

9. "ديوان البوصيري". تأليف: مُحَمَّد بن سعيد بن حماد البوصيري الصنهاجي، تحقيق: أحمد حسن بسج، منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت، سنة 2005م.

---

(1) المصدر السابق ص65.

10. "رسالة الاقتران"، من ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

11. "الرسالة إلى أهل سلا في فضل الصلاة على النبي ﷺ"، من ضمن مجموعة: "النفائس الكتانية" (1-11).

12. "رسالة المؤاخاة"، من ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

13. "الزهد" للإمام أحمد بن حنبل الشيباني. تحقيق مُحَمَّد جلاب شرف، منشورات دار النهضة العربية، سنة 1981م.

14. "سفن النجاة وكهوف العباد"، من ضمن مجموعة "النفائس الكتانية: (1-11).

15. "سفينة المحبة"، ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

16. "سفينة المحبة"، ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

17. "شعب الإيمان". تأليف أحمد بن الحسن البيهقي . طبع بدار الكتب العلمية —بيروت .

18. صحيح الإمام البخاري .تأليف مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري الجعفي مولاهم. طبعة دار ابن حزم، وبولاق.

19. صحيح الإمام مسلم .تأليف مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. طبع بدار إحياء الكتب العربية —مصر .

20. "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس"، تأليف أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال، بعناية السيد عزت العطار الحسيني، منشورات مكتبة الخانجي، سنة 1374هـ/ 1955م.

21. "العقائد الستة والستون"، رسالة مخطوطة ضمن مجموع بخط العلامة مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمراني، بحوزتي صورة منها.

22. "الفردوس بمأثور الخطاب"، تأليف شيرويه بن شهردار الديلمي، أبو شجاع. تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، منشورات دار الكتب العلمية، سنة 1406هـ/ 1986م.

23. "الفرق بين الواردات"، ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

24. "الكامل في ضعفاء الرجال"، 9 أجزاء، تأليف: عبد الله بن عدي الجرجاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي مُحَمَّد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة. منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت، سنة 1418هـ/ 1997م.

25. "لسان العرب". تأليف جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي. طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، دار صادر - بيروت

26. "مدارج الإسعاد الروحاني، في الفرق بين طريقتي الاجتباء والإنابة في السلوك"، تأليف: محمد بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: مسعود أفضال، منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت، سنة 2013م.

27. مسند الإمام أحمد بن حنبل. تأليف الإمام أحمد بن حنبل الشيباني . تحقيق أحمد شاكر . طبع بدار المعارف —ودار صادر- بيروت .

28. مسند البزار (البحر الزخار) .تأليف أحمد بن عمرو البزار. تحقيق د.محفوظ الرحمن. طبع بمطبعة العلوم والحكم —المدينة المنورة .

29. "المصنف-الكتاب المصنف في الآحاديث والآثار"، 7 أجزاء، تأليف عبد الله بن محمد؛ أبو بكر ابن أبي شيبة العبسي، تحقيق كمال يوسف الحوت، منشورات مكتبة الرشد/ الرياض، سنة 1409هـ.

30. "موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان"، 24 مجلدا، تأليف: محمد الكسنزان الحسيني، منشورات دار المحبة/ دمشق، ودار آية/ بيروت، سنة 1426هـ/ 2005م.

31. "نسخة من غاب عنه المطرب"، من ضمن مجموعة "النفائس الكتانية" (1-11).

32. "النفائس الكتانية: من رسائل الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد، في الآداب والسلوك (1-11)"، تحقيق: د. حمزة بن علي الكتاني، ود. غسان أبو صوفة. منشورات دار الرازي للطباعة والنشر، عمان 2000م.